الفصل الثالث

- صوت أوروبا يلتقى مع أطماع اليهود قبل الحركة الصهيونية بمائة عام .
- نابليون يدعو اليهود لحمل السلاح والهجرة إلى القدس - التى لم يستطع دخولها - لإنشاء الدولة اليهودية بعد فشل حملته عام ١٧٩٩ .
- بريطانيا تجدد دعوة نابليون قبل ظهور الصهيونية نفسها !!
- الاستيطان اليهودى والمصالح البريطانية .

• إن مراقبى مصائر الشعوب الواعين المحايدين – وإن لم تكن لهم مواهب المنبئين مثل إشعياء Isaiah ويوئيل Joel – قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع من دمار وشيك لمملكتهم ووطنهم : أدركوا أن عتقاء الله سيعودون لصهيون وهم يغنون ، وسيولد الابتهاج بتملكهم لإرثهم دون إزعاج فرحًا دائمًا فى نفوسهم (إشعياء Isaiah ٣٥ : ١٠) .

ومن العجيب أن نابليون بونابرت يعلن بيانه فى شهر مايو ١٧٩٩ وهو على أبواب بيت المقدس التى لم يستطع بقواته اقتحام أسوارها . بل رجع ذليلا إلى مدينة عكا حيث كانت هزيمته وفشل حملته الصليبية الجديدة وعودته يجر أذيال الهزيمة بجيشه من حيث اتى .

يقول نابليون فى بيانه إلى الشعب اليهودى – الذى لم يكن له وجود يذكر آنذاك فى القدس ولا فى فلسطين كلها :

(كان عدد اليهود فى فلسطين فى ذلك الحين لا يزيد على ألفين وبالتحديد وطبقا لتقرير مرفوع إلى نابليون نفسه مجموعة ضباط استكشاف سبقت جيشه إلى فلسطين هو ١٨٠٠ (منهم

١٣٥ فى مدينة القدس) وهؤلاء ليس فى مقدورهم – مهما فعلوا لا أن ينصروه ولا أن يخذلوه)[١] .

من نابليون القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين[٢] .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، الذين لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبهم اسمهم ووجودهم القومى ، وإن كانت قد سلبتهم أرض الأجداد فقط .

انهضوا إذن بسرور أيها المبعدون . إن حربا لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، تخوضها أمة دفاعا عن نفسها بعد أن اعتبر أعداؤها أرضها التى توارثوها عن الأجداد غنيمة ينبغى أن تقسم بينهم حسب أهوائهم . وبجرة قلم من مجلس الوزراء تقوم للثأر وللعار الذى لحق بها وبالأمم الأخرى البعيدة . ولقد نسى ذلك العار تحت قيد العبودية والخزى الذى أصابكم منذ ألفى عام . ولئن كان الوقت والظروف غير ملائمة للتصريح بمطالبكم أو التعبير عنها ، بل وإرغامكم على التخلى عنها ، فإن فرنسا تقدم لكم إرث إسرائيل فى هذا الوقت بالذات ، وعلى عكس جميع التوقعات .

---

(١) الأسطورة الامبراطورية والدولة اليهودية – محمد حسنين هيكل .

(٢) رجينا الشريف : الصهيونية غير اليهودية . ترجمة : أحمد عبد الله عبد العزيز .

أن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به والذى يقوده العدل ويواكبه النصر جعل القدس مقراً لقيادتى ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التى لم تعد ترهب مدينة داود .

يا ورثة فلسطين الشرعيين :

إن الأمة التى لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل أولئك الذين باعوا أجدادهم لجميع الشعوب (٤ : ٦ يوئيل Joel) تدعوكم لا للاستيلاء على إرثكم بل لإخذ ما تم فتحه والاحتفاظ به بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء .

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفا لإسبرطة وروما (١٢ : ١٥ Macc) ، وإن معاملة العبودية التى دامت ألفى عام لم تفلح فى إخمادها .

سارعوا ! إن هذه هى اللحظة المناسبة – التى قد لا تتكرر لآلاف السنين – للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التى سلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمة بين الأمم ، وحقكم الطبيعى المطلق فى عبادة يهوه ، طبقا لعقيدتكم ، علنا وإلى الأبد . (٤ : ٢٠ يوئيل Joel) .

قلة فقط هم الذين لا يجهلون الآن حقيقة أن نابليون بونابرت كان أول رجل دولة يقترح إقامة دولة يهودية فى فلسطين قبل وعد بلفور بـ ١١٨ سنة ، بل إن وايزمان وصف نابليون بأنه «أول الصهيونيين الحديثين غير اليهود» .

لقد اختار نابليون الوقت الذى كان فيه فى سورية ضمن حملته الكبرى على الشرق للاعتراف بحقوق اليهود . وفى ربيع عام ١٧٩٩ أصدر بيانا طلب فيه من يهود إفريقيا وآسيا أن يقاتلوا تحت لوائه لإعادة إنشاء مملكة القدس القديمة . وقد اتضح أن البيان الذى أدعى أنه صادر عن «قيادة نابليون فى القدس» لم يكن أكبر من زهو حربى لأن نابليون لم يقترب بفرقته قط من المدينة ، بل تقهقرت من فلسطين إلى مصر بحرا بعد هزيمته فى عكا فى شهر آيار / مايو عام ١٧٩٩ ، ولم يكن هناك أى أمل فى أن يفى بوعده الذى قطعه فى بيانه .

لكن هذا لا يعنى أن البيان كان « التفاتة خلوا من المعنى » ومن الجدير بالذكر أن شائعات غير رسمية عن نوايا نابليون الصهيونية راجت عشية حملته للشرق وهيأت الأرضية لهذا البيان . وكانت رسالة غفلا من التوقيع قد انتشرت بين اليهود الإيطاليين (الذين اعتبروا نابليون محررهم العظيم) تتضمن خططا منفصلة عن بعث اليهود كأمة ، وقد ظهرت الرسالة مطبوعة فى فرنسا وإنجلترا

حيث كان «دعاة النهضة» الإنجليز يرقبون حملة نابليون والغيرة تملأ قلوبهم ويلقون بالتبعية على الساسة الإنجليز لإضاعة الفرصة من أيسديهم . وفى أبريل عام ١٧٩٨ نشرت صحيفة La Decade Philosophique Litteraire of Polirtque الرسالة التى عبرت عن قناعتها بأن اليهود سيدعمون فرنسا فى فلسطين بالرجال والأموال ، « سيتدفقون جماعات لا من أجل جعل الصناعة مزدهرة فحسب ، بل لتحمل نفقات الثورة فى سورية ومصر » .

ومن الأهمية بمكان أن مقدمة البيان تخاطب اليهود بشكل مباشر على أنهم « الورثة الشرعيون لفلسطين » وتعيد للأذهان نبوءات إشعياء Isaiah ويوئيل Joel التوراتية عن عودة اليهود إلى صهيون . والأهم من ذلك أن الرسالة التى لم تكن تحمل توقيعاً تحدثت عن حدود دولة إسرائيل المقترحة بعبارات تجارية أكثر منها توراتية :

إن الدولة التى ننوى إقامتها ستشمل (بالاتفاق مع فرنسا) مصر السفلى بالإضافة إلى منطقة يحدها خط يمتد من عكا إلى البحر الميت .. وهذا الموقع الذى يعد أكثر المواقع فائدة فى العالم سيجعلنا ، عن طريق السيطرة على ملاحة البحر الأحمر ، سادة

تجارة الهند والجزيرة العربية وجنوب وشرق إفريقيا والحبشة وأثيوبيا ..

ويشير المؤرخ اليهودى المعروف سالو بارون Salo Baron إلى أن اقتران الصيغ التجارية والتوراتية أمر له دلالته ، وهو يرى أن للبيان أهمية رمزية كبرى على الرغم من عدم وجود نتائج آنية له :

كان بيان نابليون الشهير للشعب اليهودى خلال الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ ، وإن كانت نتائجه الآنية ضئيلة ، يرمز إلى اعتراف أوروبا بحقوق اليهود فى فلسطين. لم يكن نابليون يسعى لحل القضية اليهودية بدافع من حبه للآخرين . إن اعترافه الذكى بمصلحة اليهود الذين حاول أن يضمهم لجيشه ، ودعمه للأمل الذى حصل عليه اليهود من الكتاب الإنجليز والفرنسيين مؤشر على مدى شحن الجو الأوروبى بالتوقعات المتعلقة بالمسيح المنتظر .

راقت الفكرة الصهيونية لنابليون ، حيث أنها كانت تنسجم مع مفهومه الرومنتيكى عن القومية ، واهتمامه السياسى الشخصى باستغلال اليهود فى خططه الاستعمارية . وجاء فى مذكراته التى كتبها حين كان فى سانت هيلانة :

كان «التكتل» وهو تجميع الشعب الذى توحده الجغرافيا وتفرقه الثورات والعمل السياسى أحد مثلى العليا ، ففى أوروبا ٣٠ مليون فرنسى و ١٥ مليون إسبانى و ١٥ مليون إيطالى و ٣٠ مليون ألمانى . لقد كان فى نيتى أن أجمع كلا من هذه الشعوب فى دولة قومية مستقلة .

على هذا فقد كان بيان نابليون بمثابة اعتراف دولى بوجود قومى يهودى ، واعتقاد ببعث أمة يهودية فى فلسطين ، فملايين اليهود المشتتين فى أوروبا يجب أن يجمعوا فى نهاية المطاف فى دولة يهودية فى فلسطين تخدم المصالح الاستعمارية الفرنسية عن رضى.

الاستيطان اليهودى أو المصالح البريطانية :

كان الرأى العام يؤيد منذ أمد طويل الاستيطان اليهودى فى فلسطين ، أما على الصعيد السياسى فقد كانت قضية الاستيطان جديدة . وكان بالمرستون كرجل واقعى مهتما بالمكاسب السياسية التى يمكن أن تجنيها بريطانيا من خطة الاستيطان ، وكان مدركا أنه لابد من إقناع الدوائر السياسية الإنجليزية بذلك . وفى يناير عام ١٨٣٩ تلقى بالمرستون مذكرة يفترض أنها مرفوعة من سكرتير البحرية البريطانية هنرى إنس Henry Innes «نيابة عن الكثيرين ممن

ينتظرون تحرير إسرائيل» وكانت المذكرة موجهة «إلى كل شمال أوروبا وأمريكا البروتستانتية » وتطالب الحكام الأوروبيين بأن يقتدوا بقورش وينفذوا إرادة الله عن طريق السماح لليهود بالعودة إلى فلسطين . ومع ذلك أن المذكرة كانت مكتوبة بأسلوب إنجليكانى وتتضمن الكثير من الاقتباسات من التوراة إلا أنها كانت تظهر انتقال الصهيونية غير اليهودية من مرحلة التوقعات الإنجيلية الدينية إلى التدخل السياسى النشط . وقام بالمرستون برفع المذكرة للملكة فكتوريا التى كانت معروفة بورعها .

حظيت المذكرة بتغطية واسعة من الصحافة ، واعتبرت الصحف المرموقة كالتايمز وجلوب – وهى الجريدة شبه الرسمية لوزارة الخارجية – أن الاستيطان اليهودى أمر مفروغ منه ، وأعادت التايمز نشر «مذكرة لحكام البروتستانت بعد مضى أكثر من عام على إصدارها. وبعد خمسة أشهر ظهرت مقالة بعنوان «سورية – بعث اليهود» تشير إلى أن «اقتراح توطين اليهود فى أرض آبائهم وبحماية القوى الخمس لم يعد مسألة تأمل وتفكير ، بل قضية سياسية خطيرة . وأثارت المقالة هذه لأول مرة قضية رغبة اليهود واستعدادهم للتعاون مع الصهيونيين غير اليهود فى مثل هذا المشروع .

اليهودية غير الصهيونية :

مع أن النقاش العام كان يتزايد إلا أن المشاركة اليهودية بقيت قاتمة الظلال ، ذلك أن قلة من اليهود الإنجليز كانت راغبة فى عمل شيء ما بالنسبة لمشروع العودة . وعندما استفسر اللورد بالمرستون شخصيا من مجلس الوكلاء اليهودى فى لندن عن مدى مساهمة اليهود فى مشاريع الاستيطان لم يحظ بجواب شاف . عندها بعث رسالة مثيرة إلى سفيره فى القسطنطينية بونسونبى فى ١١ أغسطس عام ١٨٤٠ جاء فيها :

يسود بين اليهود الشرقيين فى أوروبا شعور جياش بأن الوقت الذى سيعود فيه شعبهم إلى فلسطين بات وشيكا . وبالتالى فإن شوقهم للذهاب إلى هناك عارم ، وأصبح تفكيرهم موجها أكثر من قبل نحو وسائل تحقيق ذلك . ومن المعروف أن يهود أوروبا يملكون ثروة ضخمة ، وأن أى بلد تختاره مجموعة كبيرة منهم لسكناها سيجنى فوائد جمة من الثروات التى سيجلبونها معهم ... ومن المفيد للسلطان أن يشجع اليهود على العودة إلى فلسطين واستيطانها لأن الثروة التى سيجلبونها معهم ستضاعف موارد ممتلكاته –

وإذا ما عاد اليهود بموافقة وحماية دعوة السلطان فإنهم سيحولون دون أية خطط شريرة قد يفكر بها محمد على أو خلفه فى المستقبل .